**ابن خلدون**

يعود نسبه إلى أسرة عربية يمنية، دخل أحد أجداده الأندلس مع الفتح الإسلامي، ثم انتقلت تلك الأسرة إلى تونس حيث ولد ابن خلدون سنة 732ه/ 1332م.

قربه بعض أمراء المغرب وتزوج من عائلة قسنطينية، ثم رحل إلى الأندلس وقربه ابن الأحمر بغرناطة، ثم رحل منها إلى بجاية فتولى الحجابة لدى سلطانها، ثم ظل يتنقل في بلاد المغرب والأندلس وظلت تتقلب به الأحوال، ثم هجر المناصب والسلاطين وأقام في قلعة أولاد سلامة أربعة أعوام، وقد أسفرت الأحداث الكثيرة التي عايشها وتأملاته فيها وفي مصائر الأمصار والدول وتقلب الزمان بأهله عن درر نفيسة ضمها كتابه التأريخي (كتاب العبر) الذي كتبه في نحو أربع سنين، أما غرّة هذا الكتاب فهي (المقدمة) التي كتبها قبل الكتاب في خمسة أشهر، وكان في نحو الخامسة والأربعين من العمر، ثم رحل إلى مصر فولي بها القضاء والتدريس، وأرسل في طلب أهله من تونس فلما كانوا في طريقهم إليه غرقت السفينة التي كانوا على متنها فهلكوا، وتأثر ابن خلدون لذلك أشد التأثر، ثم سافر لأداء الحج، وعاد إلى القاهرة وظل فيها إلى وفاته، وقد بلغ الثامنة والسبعين.

في مقدمته تبرز ملامح بالغة الأهمية حول فلسفة الحضارة وعلم التاريخ وعلم الاجتماع، فقد وقف فيها (المقدمة) على أسرار السياسة وتقلّبات الدول وسبب نشوئها وازدهارها وانهيارها، وكان له في ذلك دقة بالغة ومقدرة على الاستنتاج والمقارنة والموازنة لاستخلاص القوانين وتعميم النتائج.

كما أن مقدمة ابن خلدون تعدّ دائرة معارف للعلوم ومصادرها، وقد ترجمت إلى عشرات اللغات وكتبت عنها كتب ودراسات لا يحصرها العد.

**ابن خلدون والفلسفة:**

تأثر ابن خلدون بالغزالي وبموقفه من الفلسفة، ويقابل ابن خلدون بين المنهج الفلسفي الذي يقوم على التأمل العقلي والأقيسة المنطقية والقواعد الصورية والمنهج العلمي (الوضعي) الذي يعتمد على الوقائع والمشاهدات واستخلاص القواعد بعد وضع الفروض.

ويبدو ابن خلدون أقرب إلى المنهج العلمي التجريبي في مقدمته، ومما يؤيد هذا الحكم أنه عقد فصلا لإبطال الفلسفة وفساد منتحلها، فذهب فيه إلى أن التجربة وفحص الحقائق واستقراء الحوادث ومباشرة الكون بالحواس والعقل هو أساس العلم بحقائق الأشياء، أما ما يتحصل بطريق المنطق الصوري فلا يفيد علما حقيقيا، بل هو وهم كاذب، لا سيما إذا تناول ميدان الميتافيزيقا الذي هو من طبيعة أخرى غير طبيعة الأشياء المحسوسة التي يتوسل في معرفتها بالمشاهدة والتجربة. لا بأحكام المنطق التي لا تطابق العالم الخارجي.

ولكن المعرفة عند ابن خلدون ليست وليدة الحس وحده، بل للذهن وقواه مدخل فيها، فالفكر هو الذي يكون الآراء ويفيد العلم أو الظن، ويدفع إلى الإنتاج والعمل، وإذا كان الفلاسفة يغلون في قيمة الفكر إلى حد تجاهل الواقع المحسوس فهذا من شطحاتهم، أما ما يدعون من أن الوجود بأسره ممكن الإدراك بالعقل فهو هراء برأي ابن خلدون، فالحقيقة الوجودية شيء وما يدركه العقل منها شيء آخر، فالوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى إدراكه، وما العقل إلا ذرة من ذرات الوجود، فكيف يحيط بهذا الوجود وهو جزء منه؟

ومن الأمور التي لا يدركها العقل بأدواته ومقولاته حقيقة الألوهية وحقيقة النفس وأحوالها ومصيرها بعد مفارقة البدن، ومنها حقيقة النبوة والخلق والملائكة وجميع الموجودات الروحانية، فالموجودات التي وراء الحس ذةاتها مجهولة لنا، ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها، فما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه.

أما قدرة العقل على اكتساب المعرفة مما يقع في دائرة اختصاصه فهو أمر يقر به ابن خلدون، إذ العقل ميزان صحيح ولكنه لا يصلح أن توزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره فذلك محال.

أما المنطق فهو عند ابن خلدون آلة لتنظيم المعرفة، ولكنه لا يصلح أن يكون أداة لتوليد المعرفة، فالمنطق يصحّح العلم ولكنه لا يُكسبه، ولا يفيد إلا في نطاق ترتيب الأدلة، أما الوصول إلى النتائج الصحيحة في الأمور الإلهية وفي الأمور السياسية فليس من شأن المناطقة، فالمنطق لا يولد معرفة جديدة ما لم لمقدماته شواهد من الحس، فالشواهد الحسية هي سبب العلم لا المنطق بأقيسته وقواعده، بل إن الرجل العامّي كما يرى ابن خلدون قد يتهدّى بفطرته إلى أحكام لا يتوصل إليه المنطقي بمنطقه.

وينتهي ابن خلدون في نقده لمنهج الفلاسفة إلى أنهم لا يصلون بمنهجهم إلى يقين، لأن البرهان المنطقي لا يفضي إلى علم يقيني، ولكنه يفضي إلى أمور ظنية مقدرة في الأذهان، أما العلم الحق فهو الذي يستمد أحكامه من الأشياء الجزئية المعيّنة بوجودها الخارجي.

ويقترب ابن خلدون من الفلسفة الوضعية حين يقرر أن العلم الإلهي (علم ما بعد الطبيعة) الذي موضوعه الروحانيات غير المدركة لنا غير ممكن التحصيل أو الاكتساب بإعمال العقل والمنطق، لأن الروحانيات غير المدركة لنا لا يتأتى لنا برهان عليها، وهذا ما ذهب إليه بعض الفلاسفة المحدثين كأوغست كونت وإيمانويل كانط، ويهوّن ابن خلدون من شأن كتب المتفلسفة المسلمين كابن سينا ويرى أنها مضيعة للوقت والجهد بلا طائل.

**فلسفة التاريخ:**

نظر ابن خلدون إلى التاريخ كعلم يستحق الدرس، لا كرواية تروى وتدون للإمتاع والمؤانسة، فحاول أن يجرد من أحداث التاريخ قوانين عامة ونواميس مطردة، وهذا هو مظهر التفرد والعظمة لدى ابن خلدون، فبعد أن كان الفلاسفة يقصرون فكرة القوانين على ظواهر الطبيعة جاء ابن خلدون فعمم فكرة القانون على التاريخ والمجتمع.

لم يكن التاريخ عند ابن خلدون سردا للأحداث بل تعليلا لها، فالتاريخ لا يكفي فيه الوقوف عند ظاهر الأحداث والأيام والدول والقرون الخوالي، بل هو نظر وتحقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها... فالجديد في دراسة ابن خلدون للتاريخ هو المنهج، الذي يقوم على النقد والاستقصاء والملاحظة للأحداث البشرية الماضية ورصد علاقتها بتطور المجتمعات وظواهر الطبيعة.

وقد نبه ابن خلدون على العوامل التي تؤدي إلى تزييف الأخبار التاريخية أو التساهل في قبولها، كالتشيع للآراء والمذاهب، والثقة بالناقلين، وتوهم الصدق والتقرب إلى من يرجى نفعه من ذوي النفوذ والجاه، أما أهمها فهو الجهل بطبائع الأحوال في العمران، لا سيما في ذكر الأعداد والمقادير، والضابط عند ابن خلدون في ذلك أن ما لا يعقل حصوله في الآني لا يعقل حصوله في الماضي (فالماضي أشبه بالآني من الماء بالماء) (المقدمة، ص220)، والظروف المتشابهة ينتج عنها وقائع متشابهة.

ويتقدم النظر في الخبر في ذاته ومدى إمكانه أو استحالته بالنظر إلى أحوال الاجتماع البشري والعمران على النظر في أحوال رواته، فإذا كان الخبر مستحيلا وفق قانون الاجتماع والعمران فلا فائدة للنظر في تعديل الرواة أو تجريحهم. (فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بزيفه، وكان لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلون) (المقدمة، ص264).

وقد تبين لابن خلدون أن الحوادث يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول، وأن لها قوانين وسننا تسير على مقتضياتها، فلكل حادث سبب معقول يرجع إليه حدوثه، وهذا المنهج الخلدوني لا يسعفنا في فهم أحداث الماضي وتمحيصها وتحليلها فحسب، بل يمكنه أيضا أن يمدنا بملامح للمستقبل تتفاعل في الزمن الحاضر، مما يهيئ لعملية التنبؤ بأحداث المستقبل.

وقد تنبه ابن خلدون إلى فكرة الصيرورة التاريخية، وتبدل الأحوال في الأمم والأجيال، وأن لكل جيل عوائده أحواله وعوائده التي لا تبقى على وتيرة واحدة بل تختلف باختلاف الزمان، وهذه الفكرة وإن كانت تبدو بديهية في عصرنا لتسارع أحداث التاريخ وما صار عليه من التغير السريع والتطور المتسارع للوقائع والأحوال، فإنها كانت في عصر ابن خلدون فتحا علميا لم يسبق إليه أحد من العرب ولا من العجم.

لقد جعل ابن خلدون علم العمران أساسا لعلم التاريخ، فإذا كان التاريخ هو ذكر الأخبار الخاصة بعهد أو جيل، فإن علم العمران هو ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار، وهو أسّ للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين أخباره، كما يقول ابن خلدون في مقدمته.

وقد عدّ ابن خلدون بحق مؤسس فلسفة الحضارة والتاريخ، لأنه أول من تناول قضايا الحضارة والتاريخ بصورة علمية منظمة، حتى قال (توينبي) في حقّه: "إن ابن خلدون قد أنتج أعظم كتاب من نوعه أبدعه إنسان في كل زمان ومكان."

**علم العمران:**

هدي ابن خلدون إلى علم العمران فكان مؤسسه بلا منازع، فعلى الرغم مما ورد عند سابقيه من ذكر ما يتصل بالسياسة والحكم فإنها لا ترقى إطلاقا إلى المستوى العلمي الذي صاغ به ابن خلدون مقدمته والمنهج الفذ الذي عالج به قضايا علم العمران البشري.

لقد اقتضت طبيعة النوع الإنساني أن يجتمع الناس، وأن يتخادموا في اجتماعهم كل بما أوتي من قوة أو حكمة أو صنعة أو حرفة، ولكنهم في اجتماعهم عرضة للتنازع والتقاتل، فكان لا بد لهم من حاكم يزع بعضهم عن بعض، وهذا هو معنى الملك، وإذا كان هذا الأمر موجودا لدى بعض أنواع الحيوان فإنما هو فيهم بالفطرة، أما النوع الإنساني فهو موجود فيه بمقتضى السياسة والفكرة.

ويعزو ابن خلدون اختلاف الناس في ألوانهم وأجسامهم وأمزجتهم وسلوكهم وعاداتهم إلى اختلاف الأقاليم وطبيعة الجغرافيا والمناخ، وكلما اعتدل الحر والبرد زاد العمران واستفحل، وكلما زاد أحدهما نقص العمران، ويشهد التاريخ بأن الحضارات العريقة كالمصرية والبابلية والفارسية واليونانية والرومانية والعربية إنما نشأت في الأقاليم المعتدلة، حتى إن النبوّات إنما وجدت فيها كما لاحظ ابن خلدون.

ويظهر أثر حرارة الهواء في لون البشر، فكلما زادت الحرارة أثرت زاد سواد البشرة، وكلما برد هواء الإقليم زاد بياض أهله، وبهذا عدّ ابن خلدون رائدا في بيان ظواهر البيئة وأثرها في حياة السكان ونظمهم السياسية والاجتماعية والأخلاقية والعقلية، ولم يؤلف العلماء والمفكرون بعد ابن خلدون في هذا الأمر إلى أن جاء منتيسكيو في كتابه (روح القوانين) حيث نسب إلى البيئة جل ظواهر الاجتماع الإنساني ونظمه. وتبعه آخرون مثل راتزل وجاك برون ...

ومن المفاهيم والمصطلحات التي يتواتر ورودها عند ابن خلدون وتعد مفاتيح لدراسة نظرية الاجتماع البشري لديه البدو والحضر، ومصطلح العصبية، ومصطلح الدولة والملك،